المبحث الأول

نذر امرأة عمران

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران: ٣٥].

عندما شعرت امرأة عمران بأعراض الحمل توجَّهت إلى ربِّها معلنةً أنَّها قد نذرت ما في بطنها مخلَصاً لخدمة بيت المقدس لا يشغله عن ذلك شاغلٌ. و كان هذا النَّوع من النَّذر مشروعاً عند أولئك القوم وشائعاً بينهم للذُّكور دون الإناث.

وطلبت من الله قبول نذرها، والقبول أخذ الشَّيء على وجه الرِّضا: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران: ٣٥]، سميعٌ لدعائي عليم بنيتي.

قال تعالى ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ﴾ [آل عمران، ٣٦] أي: فلمَّا انقضت مدَّة الحمْل، ووضعت حملها، تحدَّدت نوعيته، ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ [آل عمران: ٣٦] القول فيه حسرةٌ وحرقةٌ؛ لظنَها أنَّ نذرها لا يُقْبَل لكونِه أُنثَى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ [آل عمران: ٣٦].

جملة اعتراضية لتدلَّ على أنَّها لم تقل ما قالت إخبارًا لله، بل لكونها وضعت غير ما كانـــت تريد وتتوقَّع فماذا يكون من نذرها؟ وأنَّ الله قد أحاط به علمًا.

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] أي: ليس الذَّكر الَّذي طلبتُ وأردتُ أن أُنذِره لخدمة بيت المقدس، كالأنثى الَّتي وُهِبْتُ في الصِّفات الَّتي يتطلَّبها القيام على خدمة البيت.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٣٦] بمعنى العابدة. فكأنَّها ترجو أن يكون فعلها مطابقًا لاسمها.

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمـــران: ٣٦] من أن يغويهم ويضلَّهم عن طريق الصَّلاح.

قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت رســـول الله ﷺ يقول: «**ما مِن بني آدم مولود إلَّا يَمسّـــهُ الشَّـــيطان حين يُولَد فيستهل صارخًا من مسِّ الشَّـــيطان غير مريم وابنها**» ثمَّ يقول أبـــو هريرة: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] [رواه البخاري][1].

(١) راجع صحيح البخاري، كتاب أحاديـــث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦] (ح/ ٣٤٣١).

قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧] من أمِّها، فرضي بها في النَّذر مكان الذِّكر، ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾[آل عمران: ٣٦] أي: أنشأها نشأةً طيِّبةً طاهرةً.

والإنبات يُطلق على الزَّرع، فإذا كان في تربةٍ جيِّدة ويُعطَى حاجته من الغذاء وأشعَّة الشَّمس والعناية الكافية، عندها سيُعْطى بإذن الله ثمرة يانعة طيِّبة. والولد كذلك إذا نشأ في بيئة صالحة طيِّبة مباركة تَعبد الله على بصيرةٍ فإنَّه ينشأ نشأة صالحةً.

كفالة زكريا عليه السلام مريم:

قال الله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾[آل عمران: ٣٧] هو زوج خالتها[١]، ونبي الله، وكفالة زكريا عليه السلام مريم تمَّت عن طريق الاقتراع، كما قال تعالى في وصف ذلك: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤]، فألقوا أقلامهم في نهر الأردن فجرت الأقلام (وعال قلم زكريا عليه السلام)[٢] فاستأثر بالنَّذيرة، وضمَّها إليه، وأنشأ

(١) كما جاء في حديث الإسراء الطَّويل بأنَّ عيسى ويحيي ابنا خالة.

(٢) ذكره البخاري في صحيحه معلقًا، في كتاب الشَّهادات، باب القُرعة في المشكلات عن ابن عباس وانظر تفسير الطبري بتحقيق محمود شاكر (٦/ ٣٤٨-٣٤٩) وتفسير القرطبي(٤/ ٨٦).

لها فـــي ناحيةٍ من بيت المقدس محرابـــاً وضعها فيه يَرقى إليه بدرجٍ، يغدو و يروح عليها بما يصلح شأنها، و يقيم أودها.

و كان ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمـــران: ٣٧]. غير الَّذي يأتي به، ولَّما كان قد تفرَّد بكفالتها من جميع الوجوه، و قـــد انقطعت في محرابها تعبدالله، قانتة و ســـاجدةً و راكعةً تنفيذاً لأمر ربِّها في قولـــه تعالي: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] لمـــا كان الأمر كذلك فقد لفتَ نظره وجود ذلك الرِّزق الَّذي لا يعرف مصدره، فســـأل عن مصدره كما أخبر تعالـــى: ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمـــران: ٣٧]، أي: بغير تقدير في مقابلة جزاء عملٍ أو بغير استحقاقٍ تفضُّلاً.

طلب زكريا عليه السلام الولد:

لمـــا كان زكريا عليه السلام في وقته نبياً يدعو النَّاس إلى عبادة الله وحده، ويحثُّهم على الصَّالحات من الأعمال، فإنَّه قد خشـــي أفول نجم دعوته من بعده، خاصة أنَّ الَّذين سيرثون أمر الدَّعوة من بعده ليســـوا على حـــدٍّ كبيرٍ من الكفـــاءة و الخبرة في هذا المجال الَّذي يحتاج إلى كثيرٍ من الحكمة والموعظة الحسنة.